التقارب الفكري

بين محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمن

أ. فاطمة المهدي جبريل
قسم الفلسفة – كلية الآداب بالعجيلات
جامعة الزاوية

ملخص الدراسة:

من البديهي أن يظهر الإختلاف بين المفكرين والفلاسفة والكتاب، والاختلاف بين محمد عابد الجابري، وطه عبد الرحمن في الفكر يتبلور حول المفاهيم المشتركة بينهما في مجال البحث الفكري والفلسفي، كالحداثة والتراث والعقلانية وقيم الدين الإسلامي.

انطلق الجابري من مبدأ تحديث التراث العربي الإسلامي. ومواكبة التراث الغربي، وسيره جنبا إلى جنب في عملية التطور العقلي والفكري، في مجالات الدين والتراث والحداثة.

بينما طه عبد الرحمن يسعى من خلال مشروعه الحداثي في التجديد والإحياء الفكري، إلى تأصيل الإبداع المعرفي الإسلامي العربي، وتحريره من التبعية والتقليد الغربي. والهدف إقامة فلسفة عربية أصيلة.

إلا أنهما اتفقا في استخدام المنهج النقدي للتراث والحداثة والعقلانية العربية، بهدف التحديث أو التجديد.

Abstract:

It is obvious that the difference appears between thinkers, philosophers, and writers, and the difference between Muhammad Abed Al-Jabri and Taha Abdel-Rahman in thought revolves around common concepts between them in the field of intellectual and

philosophical research, such as modernity, heritage, rationalism, and the values of the Islamic religion.

Al-Jabri started from the principle of modernizing the Arab-Islamic heritage, Keeping pace with the Western heritage side by side in the process of mental and intellectual development in the areas of religion, heritage and modernity.

While Taha Abdel Rahman seeks through his modernist project of renewal and intellectual revival to root Islamic Arab knowledge creativity, and liberates it from dependence and Western imitation. The goal is to establish an authentic Arab philosophy.

However, they agreed to use the critical approach to heritage, modernity, and Arab rationality, with the aim of modernization or renewal.

مقدمة :

تعد إشكالية الحداثة والتراث والعقلانية في الفكر العربي الإسلامي من أبرز الإشكاليات التي ناقشها المفكرون العرب والمسلمون المعاصرون ولاسيما في العقود الأخيرة وألفوا فيها دراسات وأبحاثاً يتضح من تصفحها أن أصحابها لم يثبتوا موقفاً واحداً من تلك الإشكالية، بل تعددت واختلفت آراؤهم حيالها، وسنتناول في هذه الدراسة تباين وجهات النظر بهذا الخصوص عند كل من المفكرين محمد عابد الجابري والفيلسوف طه عبد الرحمن.

أهداف الدراسة : الهدف من هذه الدراسة إيضاح إشكالية الحداثة والتراث والعقلانية ووضعها في إطار مبسط لفهم القارئ.

أهمية الدراسة: تبدو في التعريف بالمصطلحات الفلسفية المعاصرة، وضرورة طرحها ومناقشتها وإزالة اللبس والغموض فيها.

منهج الدراسة: أما فيما يتعلق بالمنهج المتبع في معالجة هذه الإشكالية فقد اعتمدت الباحثة على المنهج التحليلي المقارن لمختلف الأفكار نظراً لتوافقه مع طبيعة البحث.

وفي هذا الإطار نطرح التساؤلات الآتية:-

1- ما هي المرجعية الفكرية التي استند عليها محمد الجابري وطه عبد الرحمن لحل إشكالية الحداثة والتراث؟

2- كيف بنى محمد الجابري وطه عبد الرحمن حداثة عربية عقلانية معاصرة؟

3- ما هي المبادئ الأساسية للتحديث عند كل من محمد الجابري وطه عبد الرحمن؟

اولا - المرجعية الفكرية لكل من محمد الجابري وطه عبد الرحمن.

1- محمد عابد الجابري (1935-2010):-

مفكر مغربي درس في كلية الآداب في الرباط وعمل استاذاً في الكلية نفسها، أهم كتبه سلسلة نقد العقل العربي بأجزائه الأربعة، يتمحور مشروع الجابري حول مفهوم نقد العقل العربي ويعني بهذا المفهوم النقد الإبستمولوجي للتراث العربي في مستويين: تكوين تاريخي ونسقي بنيوي، وفي حقول ثلاثة هي: المعرفة والسياسة والأخلاق، ويهدف الجابري من مشروعه إلى تأسيس عصر تدوين جديد ودفع المشروع النهضوي العربي[1].

وقد تناول الجابري في محاور فلسفته مصطلح الحداثة حيث يرى أنها قبل كل شيء العقلانية والديمقراطية. والتعامل العقلاني النقدي مع جميع مظاهر حياتنا، والتراث من أشدها حضوراً ورسوخاً، وهو الموقف الحداثي الصحيح. وإذن فالحاجة إلى الاشتغال بالتراث تمليها الحاجة إلى تحديث كيفية تعاملنا مع خدمة الحداثة وتأصيلاً لها[2].

2- طه عبد الرحمن (- 1944):-

فيلسوف مغربي معاصر درس الفلسفة في المغرب وفرنسا وتخصص في فلسفة اللغة والمنطق، من أهم كتبه اللسان والميزان، سؤال الأخلاق، روح الحداثة، وغيرها، وقد جعل طه عبد الرحمن من تجديد الدين محور مشروعه الفلسفي، وقد اهتم بالإشكالية التراثية في مجاله التداولي بأحدث الأدوات التأويلية، وتنشيط العمل الديني عن طريق تجديد العقل وصولاً إلى حداثة إسلامية قائمة على الأخلاق، وقد عرَّف التراث بقوله: "إنه عبارة عن جملة من المضامين للنظر في التراث، ومنهجاً جديداً لتجديد العقل الديني عن طريق العقل[3]".

ثانيا : مسألة الحداثة والتراث في الفكر العربي المعاصر كما تناولها محمد الجابري وطه عبد الرحمن:-

تباينت التوجهات الفكرية في معالجة قضية الحداثة والتراث، وذلك لمحاولة إيجاد حل لهذه القضية التي تشعبت عند المفكرين والفلاسفة العرب، فمصطلح الحداثة يعد من أكثر الاصطلاحات حضوراً في مشهدنا الثقافي منذ عقود، واهتم بتعريفها الكثير من الدارسين والباحثين في تخصصات معرفية شتى، فعلى سبيل المثال، نجد عبد الله العروي قد حاول تحديد ماهية الحداثة بأنها حداثة منطق الفكر الحديث المضاد لمنطق الفكر التقليدي[4].

أما حسن حنفي فيرى أن الحداثة قد تعني التجديد، أو إتباع أساليب العصر، ويرى أنه من الظلم أن يستأثر الغرب وحده بالحداثة، "فالحداثة لا تعني الغرب بالضرورة، وإنما تعني قدرة التراث على أن يعتمد طبقاً لظروف العصر"[5].

ويكشف البحث في مفهوم الحداثة عن وجهين بارزين: الأول يتجلى في بعدها المادي الشكلي، والثاني يتمثل في الحداثة العقلية والنظرية المؤسسة على المنطق الحديث، ويسمي المفكر الجزائري محمد أركون الوجه الأول بالتحديث التقني للمخترعات الحديثة، على حين يسمي الثاني بالحداثة من حيث أنها موقف للروح أمام مشكلة المعرفة.

ولقد كان العامل السياسي من بين أهم العوامل التي حالت دون الوصول إلى وجهة نظر متوافقة. حيث يؤكد عبد النبي الحري في معرض حديثه عن الصراع الفكري بين الجابري وطه عبد الرحمن على أنه في أكثر من موضوع هناك درجة من الانفعالية والحدية عند كلاً منهما، ونجد ذلك بوضوح حين قدم الجابري قراءة إيديولوجية للتراث، فقسمه إلى ثلاثة دوائر هي: البرهان، والبيان، والعرفان. فكان رد طه عبد الرحمن أن قسم التراث تقسيماً ثلاثياً أيضاً وهو: العقل المجرد، والعقل المسدد، والعقل المؤيد. وقد طرح الجابري أيضاً حل إحياء البرهانية الرشدية لحل مشاكل التراث والتيارات العنيفة، واقترح طه عبد الرحمن في المقابل إحياء العرفان الغزالي لمواجهة مشاكل التراث والتيارات العنيفة[6].

ومن العوامل الأخرى التي حالت دون توافق وجهات نظر كلاً من الفيلسوف محمد الجابري وطه عبد الرحمن في موضوع الحداثة والتراث هي منطلقات التحديث عند كلاً منهما، فالجابري ينطلق من الحداثة الغربية لنقد التراث، أي يدعو إلى تحديث التراث ليكون مواكباً للتقدم والنهوض الغربي، أما طه عبد الرحمن فينطلق من التراث لتأسيس الحداثة الإسلامية[7]، كما ويدعو في معرض حديثه عن الحداثة الغربية إلى أسلمتها أو تخليقها حسب تعبيره، ويعترض على استيراد حل جاهز من بيئة أخرى مهما كانت ثماره في بيئته، ومنطلقه من هذا أنه من الواجب أن نتبع في وضع مفاهيمنا وصوغ أحكامنا قاعدتين منهجيتين نقديتين خاصتين بنا:

1- فكل أمر منقول معترض عليه حتى يثبت بالدليل صحته.

2- وكل أمر مأصول مسلم به حتى يثبت بالدليل فساده[8].

كما أنه دعا إلى تأسيس أنموذج الحداثة الإسلامية ينطلق من الأخلاق كأصول لبناء النموذج بدل العقل وهو كالتالي:-

أ- إن القيمة الأخلاقية أسبق على غيرها من القيم بحيث لا فعل يأتيه الإنسان إلا ويقع ابتداءً تحت التقويم الأخلاقي.

ب- إن ماهية الإنسان تحددها الأخلاق وليس العقل، بحيث يكون العقل تابعاً للأخلاق.

ج- إن الأخلاق مستمدة من الدين المنزل، وهو بالتالي لا يستطيع يتجرد كلياً من تدينه[9].

وبخلاف ما ينطلق منه طه عبد الرحمن في التحديث الإسلامي ينطلق محمد الجابري في دعوته إلى تحديث التراث من منهج خاص ومناقض للأول، بحيث يعمل على استدعاءه العقلانية النقدية التي عُرِفت ونُسِبت إليه، ومازال الاعتقاد بهذا التشاكل والتناسب راسخاً حتى سوى بينهما، فقيل الحداثة عقلانية أو عقلانية الحداثة. وعلى هذا الأساس فالفكر الفلسفي قد أسس حداثته بمحاولة الاعتبار إلى العقل وإثباته باستعادة تجليات اللاعقل

من ناحية أخرى، فقد استبعدت الفلسفة الكلاسيكية اللاعقل باعتباره منبع الفساد والتشويش والخراب[10].

افتتح الجابري القول في أطروحته (نقد العقل العربي): إن نقد العقل جزء أساسي وأولي من كل مشروع للنهضة، ولكن نهضتنا العربية الحديثة جرت فيها الأمور على غير هذا المجرى، ولعل ذلك من أهم عوامل تعثرها المستمر إلى الآن. وهل يمكن بناء نهضة بعقل ناهض، عقل لم يقم بمراجعة شاملة لآلياته ومفاهيمه وتصوراته ورؤاه[11].

فالمنطلق الذي بنى عليه الجابري نقده للتراث هو (العقل الناهض)، وفي هذا المعنى يقول: "العقل العربي هو الفكر بوصفه أداة للإنتاج النظري"[12]، وهذه الأداة صنعتها ثقافة معينة لها خصوصيتها هي الثقافة العربية بالذات، الثقافة التي تحمل معها تاريخ العرب الحضاري العام وتعكس وتعبر في ذات الوقت عن عوائق تقدمهم وأسباب تخلفهم الراهن. وقد أرجع الجابري علة التخلف العربي بشكل عام إلى استقالة العقل التي ظهرت تجلياتها في مكونات الثقافة العربية الثلاث: البيان، والعرفان، والبرهان، بأشكال وصيغ متباينة، فالمسلمون بدؤوا يتأخرون حينما بدأ العقل عندهم يقدم استقالته، حينما أخذوا يلتمسون المشروعية الدينية لهذه الاستقالة، في حين بدأ الأوروبيين يتقدمون حينما بدأ العقل عندهم يستيقظ ويسأل نفسه[13].

وانطلاقاً من المخرجات التي استند عليها الجابري في نسقه الفلسفي يقترح تأسيس حداثة في الواقع العربي انطلاقاً من تجديد الصلة بالعقلانية النقدية، فلا حداثة بالنسبة له دون تجديد الاتصال بالتراث. وهذا الاتصال بالذات يكون بمعالجته ونقده نقداً عقلانياً ليساير الحداثة الغربية! ولا نهوض ولا تطور إلا بالمراجعة وتجديد القديم بالمنهج الحديث من أجل استيعاب حركة التاريخ، كما أن القراءة العصرية للتراث التي نقترحها ونطبقها تهدف إلى جعل المقروء معاصراً لنفسه على صعيد الإشكالية النظرية والمحتوى المعرفي والمضمون الإيديولوجي، أي قراءته في محيطه الاجتماعي والتاريخي من جهة وفي ذات الوقت جعله معاصراً لنا من جهة أخرى على صعيد الفهم والمعقولية. أما القوالب الجاهزة الجامدة، سواء

كانت قديمة أو حديثة فهي لاتملك أن تقدم غير شيء واحد هو القراءة التراثية للتراث التي تجر حتماً إلى القراءة التراثية للعصر (قراءة عصرنا بنفس تراثنا أو بتراث أخر وثقافة أخرى)[14].

ثالثا : مقاربة التحديث عند كل من محمد الجابري و طه عبد الرحمن.

أولا: مبادئ التحديث عند محمد الجابري:-

يقوم التحديث عنده على ثلاث مرتكزات أساسية:

- ضرورة القطيعة مع الفهم التراثي للتراث؛ أي إرسال قطائع ابستمولوجية بالمعنى (الباشلاري) مع بنية العقل العربي في عصر الانحطاط وإمدادها في الفكر العربي الحديث والمعاصر. ولا يعني هنا الانفصال الكلي عن التراث ذاته بل القطيعة مع نوع من التراث، بحيث تتحول من كائنات تراثية إلى كائنات تمتلك تراثها.
- فصل المقروء عن القارئ، أي إرساء عملية فصل مزدوج بين الذات والموضوع؛ ذلك أن القارئ العربي مؤطر بتراث يثقل حاضره، ومن ثم وجب تحرير الذات من هيمنة النص التراثي.
- وصل القاري بالمقروء، أي ضرورة الحدس الاستشرافي كحق للذات القارئة التي تقرا نفسها في الذات المقروءة مع الحفاظ على التمايز بين الذاتين[15].

ثانياً: مبادئ التحديث عند طه عبد الرحمن:-

في مقابل ما قدمه محمد الجابري من مبادئ للتحديث توجه تعامله مع التراث. يقدم طه عبد الرحمن هو الأخر منهجاً للتحديث ينطلق من ضرورة إبداع المجتمع المسلم لمفاهيمه أو إعادة إبداع مفاهيم غيره حتى تصبح كأنها من إبداعاته ابتداءً، ثم يعرج بعدها إلى الاعتراض على دعاوى المقلِّدة وهما أحد النوعين أحدهم يضم الذين يقلدون المتقدمين من المسلمين وهؤلاء يميلون إلى إسقاط المفاهيم الإسلامية التقليدية على المفاهيم الغربية الحديثة، كإسقاط مفهوم الأمة على مفهوم الدولة أو مفهوم الشورى على مفهوم الديمقراطية،

فيصرون إلى رد المفاهيم المنقولة إلى المفاهيم المأصولة فينتهون إلى محو خصوصية المفاهيم المنقولة.

أما الصنف الثاني فهم المقلِّدة المتأخرون الذين أسقطوا مفهوم العلمانية على مفهوم العلم بالدنيا، ويريدون أن تكون له صبغة عقلية استدلالية، أي رد المفاهيم المأصولة إلى المفاهيم المنقولة فينتهون بمحو خصوصية المفاهيم المأصولة[16].

الخاتمة

إن النتائج التي خرج بها كل من محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمن كانت متضادة، وما ذلك إلا لأنهما انطلقا من أركان مختلفة، فأطروحة الجابري التي اقترحها للتحقق بالحداثة تبنى على استدعاء العقلانية النقدية كشرط للمعرفة، وأي سعي للتحديث خارج هذه القاعدة هو ضرب من ضروب العبث، أما طه عبد الرحمن فقد انطلق في بناءه للأنموذج الحداثي الإسلامي من خلال التنزيل العملي لروح الحداثة التي يجب أن تؤسس على التجربة الروحية لتتحقق بالتخلق المؤسس على المنهج العقلي الرصين لتمدنا بأسباب الإنتاج الفكري، فالحداثة عنده ليست تقليد ما عند الغير قولا وفعلا، ولكنها إتيان ما يضاهي ما عند الغير إنتاجاً وإبداعاً.

هذا الاختلاف في الرأي ووجهات النظر بين الجابري وطه عبد الرحمن يقابله اتفاق ضمني في كثير من القضايا والمبادئ التي تفسر معنى الحداثة والتراث والعقلانية، أهمها ضرورة النهوض بالفلسفة من حيث تجديد مشروعها العلمي والبحثي. وهذا المشروع يتحدد بواقع البحث في التراث الإسلامي العربي خاصةً في المناهج العلمية التي تميز هذا التراث.

كما أكد كلاهما على أهمية الروح العقلانية النافعة، واستعمال وتوظيف المناهج والمفاهيم العلمية المعاصرة .

وترى الباحثة أن مسألة الحداثة والتراث مسألة تجديد للفكر باستعمال مناهج جديدة وشرحها وتوظيفها في تحليل التراث الفكري للكشف عن تقدمه وبشكل عقلاني،

فمعالجة التاريخ الثقافي العربي يحتاج للمنهج التاريخي كما يحتاج لإعادة كتابته بصورة عقلانية نقدية؛ لان التعامل العقلاني النقدي مع التراث والحداثة يتوقف على ما نوظفه بنجاح من المفاهيم والمناهج العلمية المعاصرة. ومعنى ذلك أنه يصعب علينا فهم ذاتيتنا وتراثنا ما لم نستعمل منظار غيرنا بما يتماشى مع أخلاقيات الحوار والروح العلمية.

هوامش البحث :

(1) السيد ولد أباه، أعلام الفكر العربي، مدخل إلى خارطة الفكر العربي الراهنة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2010، ص162.

(2) محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، ص18.

(3) السيد ولد أباه، مرجع سابق، ص72،71.

(4) مجلة الكلمة، مجلة فصلية تُعنى بشؤون الفكر الإسلامي وقضايا العصر والتجديد الحضاري، تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، العدد85، السنة الحادية والعشرون، بيروت، لبنان، 2014، ص154.

(5) حسن حنفي، الجابري– حوار المشرق والمغرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1990، ص17.

(6) عبد النبي الحري، طه عبد الرحمن ومحمد عابد الجابري، صراع المشروعين على أرض الحكمة الرشدية، منشورات الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2014، ص178، 179.

(7) المرجع نفسه، ص184.

(8) طه عبد الرحمن، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص13، 14.

(9) المصدر نفسه، ص15، 16.

(10) فتحي التريكي، رشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، 1992، ص17.

(11) محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط4، 1991، ص5.

(12) المصدر نفسه، ص14.

(13) المصدر نفسه، ص71.

(14) محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، ص60.

(15) السيد ولد أباه، مرجع سابق، ص165،164.

(16) طه عبد الرحمن، روح الحداثة، مصدر سابق، ص11، 12.